ارتكاسات نقد العقل
قراءة فى مسارات النظرية النقدية

عبدالله موسي

قسم الفلسفة - جامعة وهران - الجزائر

لقد حصلت «مدرسة فرانكفورت لعلم الاجتماع الألمانى» على طابعها المؤسس عبر تأسيس «معهد البحوث الاجتماعية» فى عشرينات القرن العشرين ، ذلك المعهد الذى وضع ضمن جامعة فرانكفورت . وجاء تأسيس المعهد عبر هبة وقفية، جعلت من شخصيات من مثل «تيودور أدورنو (١٩٠٣ - ١٩٦٩) وماكس هوركهايمر (١٨٩٥ - ١٩٧٣) ، أبرز العاملين بالمعهد منذ تأسيسه، علما علي العالم الفكرى والسياسى «لجمهورية فايمار» ولما بعدها حتى الفترة المعاصرة. وفى عام ١٩٣٠ صار «ماكس هوركهايمر» مديرا للمعهد ، ومحورا لتلك الدائرة من الباحثين ، الذين وجدوا فى النظرية الماركسية المرشد الأهدى لفهم ظروف العصر المحيطة بهم . وقد أخذ أتباع «النظرية النقدية» على عاتقهم مسألة قراءة التاريخ الفكرى الألمانى من جديد مثل رؤى «نيتشه وشوبنهاور» ، فى فى ضوء المادية التاريخية . وفى عام ١٩٣٧ نشر «هوركهايمر» مقالته الشهيرة بعنوان «الرؤية التقليدية، والنظرية النقدية» فصارت من جهة دليلا نظريا لمدرسة فرانكفورت، وتوجهاتها الجديدة ، ومن جهة ثانية مصطلحا لأخفاء الأساس الماركسى للمدرسة (نقدى بدلا من ماركسى)، وكانت مجلة المعهد المسماة : "«مجلة البحوث الاجتماعية» مجالا لنشر أهم بحوث العاملين فى السنوات اللاحقة على تأسيس المعهد . رغم الاختلافات النظرية بين أعضائها الناجمة عن النتائج المتمايزة للبحوث والاهتمامات من جهة ، ولاختلاف الأمزجة الفردية من جهة ثانية.

ومع وصول النازيين للسلطة عام ١٩٣٣ بدأ عهد التشرد بالنسبة للعاملين والدارسين فى معهد فرانكفورت ، اتجاه فرنسا والولايات المتحدة الامريكية.. حيث تابعوا عملهم فى تطور «النظرية النقدية» وفى عامى ١٩٤٩ و ١٩٥٠ عاد إلى ألمانيا الاتحادية كل من «أدورنو، و هوركهايمر وبولوك» . وانضم إليهم لاحقا فى أواخر الخمسينات «يورغن هابرماس وجان بياجيه» اللذين أسهما إلى حد بعيد فى بلورة الطابع الخاص للمدرسة ، والتعريف بها ، وبالاتجاهات النقدية الممثلة في علم الاجتماع «بفرنكفورت» .

النظرية النقدية وارتكاسات عصر التنوير :

لقد بدأ أفول عصر التنوير مع مطلع القرن التاسع عشر ، بعدما وصلت حركة التنوير إلى درجة متطورة من التأسيس على يد «كانط» فى ألمانيا، فلم نعد نشهد نظريات علمية كما كان (لكبلر، جاليلى ، نيوتن) وحتى الفلسفة وقفت أبنيتها المحكمة عند «كانط» ، بل لم يعد القرن التاسع عشر وما بعده يشهد سوى شروح لمذاهب ، أو تلقين لمذاهب فلسفية مختلفة على نحو الأفلاطونية المحدثة، الديكارتية الجديدة . ومراجعات هنا وهناك .

لقد كانت بداية النزول فى اتجاه مضاد مع «حركة الرومانتيك» * التى انتشرت في باقى اوروبا .

فبعدما كانت حركة التنوير تقول بالفردية والذاتية وتحلل المرء من كل التقاليد الموروثة والظروف التى وجد فيها ... والقضاء على كل أثر من آثار العصور الوسطى ، والفصل بين عالم التجربة وعالم العقل المجرد ... على العكس من ذلك كله حركة «الرومانتيك» أرادت أن تزج بالفرد وسط الأمة ، وأن تخضعه خضوعا تاما لسلطان الدولة والكنيسة. ولظروف الزمان الذى وجد فيه والجنس

---

* حركة الرومانتيك القرن ١٩ (بالضبط ١٨١٥ مؤتمر فينيا ١٨٤٨) ظهرت حركة الرومانتيك كمعارضة لحركة التنوير وكرفض للطابع المجرد الشخصى للعقلانية إذا أصبحت بحث فيما قبل العقل وفيما بعد العقل

الذى ينتمي إليه والمكان الذى يقيم به ويحيا ماضيه كله فى نفسه ، ماضى أمته وتقاليدها وأساطيرها وأحداثها .. فأصبح الإنسان كتلة من الماضى مرتبطة بمكان معين ، ومحدودة بزمان معلوم . وبالتالى أصبحوا يقدسون العصور الوسطى ويعدونها أرقى العصور الإنسانية وأخلقها بالفضيلة، وأقربها إلى تحقيق مثلهم ، بل لم يعودوا يفصلون بين عالم التجربة وعالم العقل المجرد بل يعدونهما من نسيج واحد لا وجود لأحد منهما دون الآخر . فى حين الموقف الذي يتبناه العقلانيون المعاصرون من تاريخ الفلسفة هو موقف فى الفلسفة وفى تاريخ الفلسفة غير أنهم لا يعتبرون أنفسهم امتدادا استمراريا لا للعقلانية الكانطية ولا للعقلانية الكلاسيكية ، كون العقل فى منظورهم يراجع نفسه ويعيد فيها النظر فى ذاته باستمرار ، فهو فى نقاش أزلي وصراع أبدى مع ذاته .. «فالعقل لا يقر له قرار ، حركته الحقيقية هى «النفى والتجاوز ، نفى غير آلى ،. بل تركيبى وتوسعى» (١) .

ضمن هذا السياق النقدي للعقل وللعقلانية النسقية السابقة ، يبرز موقف النظرية النقدية من خلال «أرنست بلوخ (١٨٨٥ - ١٩٧٧) أبرز منظرى المدرسة، فى دراسته عن عصر النهضة وكل من «تيودور أدورنو» «هوركهايمر «اللذين ألفا كتاب «جدل التنوير» واهتما بتقديم فلسفة غير تقليدية ، لا تهتم بالاتجاهات النظرية فى تاريخ الفكر قدر اهتمامهما بالبنية العامة للمجتمع كما تنعكس فى العقل، إذ بحثا مصائر العقلنة وإمكانيتها للتحرر رغم مشكلاتها الضخمة بإيقافها أمام «محكمة العقل» (كانط) . وحكمها يمكن تبينه من خلال مسألتين : القول بأن الأسطورة - فى زمانها - تعقل ، كما أن التعقل المعاصر أو التنويرية المعاصرة تتجه لتكون أسطورة من جديد . أما بالنسبة للأسطورة فقد أوضحاها بأن الجماعات البشرية فيما قبل التاريخ حاولت التخلص من تحكم الطبيعة.

---

(١) انظر : «سالم يفوت» فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة ، دار الطليعة، بيروت ط ١، ١٩٨٢ ، ص ٦٥ و ٦٦.

فالإنسان الأول القادر على «الاصطلاح» أو «التعبير» اتخذ الطبيعة موضوعا بأن جعلها أداة أو وسيلة لأغراضه ، ففى الأسطورة إعادة تشكيل للطبيعة حسبما يراه الإنسان . وهكذا فإن الطبيعة ما تزال تقف فى مواجهة العقل والتعقل باعتبارها مهددة . ويواجه العقل هذه القضية عن طريق المضى قدما فى عملية عقلنة كل المجالات الحياتية ، وإذن الحل ليس فى «الخروج على العقل» أو إزالته ، بل فى أن «يتعقل العقل تعقله» أو ينور العقل تنويره .

وعليه يطرق «أدورنو» موضوع فلسفة التنوير من خلال إثارة أسئلة حول بنية العقل المعاصر .. فيتساءل هل الصورة التي وصلت إليها الحضارة المعاصرة هى نتيجة لفلسفة التنوير ، التي استبعدت الإبعاد المختلفة للعقل وجعلته يقتصر على العقل العلمى والتكنولوجى ، وتم استبعاد صور العقل الأخرى، مثل العقل الخيالى ، والأسطورى؟ «إن نقد التنوير هو نقد العقل ذاته» (١).

إذ نتيجة اتساع السوق وسيطرة العقل الحسابي أصبح الموجود المادى هو العقل الذى يتحكم في مصير الإنسان المعاصر وتم إغفال الأبعاد الأخرى كدور العلم التحريرى للإنسان مثلا . إذ أصبح ضرورى نقد العلم الغربى فى صورته الجزئية التى ساهمت فى تفتيت الوعى الإنسانى وفى خلق أسطورة المردود والعقل الاستهلاكى – فأى نقد لهذه الحضارة يبدأ من نقد العقل – بحيث إذا كانت فلسفة التنوير تدعو إلى استخدام العقل فى كل شيء فإن «أدورنو» يدعونا إلى استخدام العقل فى مجال جديد هو نقد العقل نفسه في استخدامه كبنية اجتماعية للسيطرة والقمع (٢). ولذا يرى «أدورنو» أن فلسفة التنوير فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد أخلطت بين استخدامات العقل المطلقة. إذ تم

---

(١) سالم يفوت (المرجع السابق) ص ٨٨

(٢) أنظر مقال ابراهيم الحيدرى : «النظرية النقدية وديالكتيك عصر التنوير» ، دراسات عربية عدد ٩ و ١٠ السنة ٢٥ يوليو/اغسطس ١٩٨٩، ص ١١٠

استخدام العقل فى البحث فى مجالات سبق «كانط» أن بين أنها تتجاوز قدرة العقل الإنسانى ، وقد تم تعميم ما توصل إليه العقل فى تلك الفترة على باقى التاريخ الانسانى .. أما القرن الثامن عشر الذي تنتمى اليه فلسفة التنوير لا يمثل الا لحظة من لحظات تاريخ العقل لأن فلسفة التنوير هى تجميع وتكريس لميراث العقل الذى تجاوز الحدود التى حددها «كانط» من قبل - حينما كان العقل هو القوة الفاتحة - ولأن فلسفة التنوير اهتمت بدراسة جهد الإنسان فى الانتاج والتأثير على الطبيعة دون الاهتمام بالحركة الاجتماعية الناجمة عن ذلك ودون الأبعاد الأنطولوجية للإنسان ، وإذن فالعقل الغربي مهدد منذ ولادته بخطر اللاعقل، إذ كلما اكتسب العقل الدقة والسيطرة على موضوعه ازداد انغلاقا على نفسه لأنه يفرض على نفسه معايير الدقة التى يفرضها على الموضوع الخارجى. وبالتالى فإن العقل فى صورته الراهنة لا يقل عن الأسطورة . إذ وقع العقل فيما أراد التحرر منه - كون المعرفة العلمية تسربت الي العقل الفلسفى المعاصر، الذى أصبح يعتبر التقنية أو الآلية هى جوهر المعرفة الفلسفية والتقنية . مما يعنى التحول الكامل للعالم الطبيعى والاجتماعى - لأنها تؤثر فى الذات والموضوع والعمل واللغة وكل أنماط العلاقة التى تربط الإنسان بالعالم - أى تحول العلم والإيديولوجية والفلسفة إلى أدوات فى خدمة السيطرة التى هى بمعنى من المعانى جوهر المجتمع الذى نشأ عنه هذا الاستخدام للعقل - وإذن فهى عودة العقل الى اللاعقل الى الخرافة ... فى هذا الصدد : يرى كل من «هوركهايمر وأدورنو» : أن الانتحار الذاتى لعصر التنوير كان قد أجبر الفكر على تعطيل نفسه حتى حد السذاجة مقابل التمسك بالتقاليد الفكرية الجديدة للفكرالوضعى الذي اختار لنفسه طريق التحول نحو السلبية وتحطيم ما بناه بنفسه (١) .

---

(١) انظر مقال : ابراهيم الحيدرى «الحضارة والمدنية» - طروحات فى النظرية الاجتماعية والمجتمع ، نشرية رقم ١٠ ، منشورات معهد العلوم الاجتماعية ، عنابة ، الجزائر ، ١٩٨٣ ص ٤١.

إذ العقل فى نظر «أدورنو» ليس ملكة أو خاصية للإنسان وإنما هو موقف يقود السعي إلى المعرفة من أجل السيطرة» *. ولذلك هو موقف يرتبط بأنماط التنظيم الاجتماعى .. فالعقل بعد التنوير جعل النسان يخاف من أى شيء لا يخضع لقاعدة ما أو لعدد كمى . وصل العقل إلى$بناء كون متناسق ومنسجم لكنه متكرر كالأسطورة٤. لأن النزعة العقلانية لعصر الأنوار كانت نز]ة إنسانية كونها كانت تجمع بين احترام وعبادة٣الإنسان ، من حيث هو كائن حر وعقلانى ، وذات!فاعلة فى الكون وكونها حملت معها فى صراعها ضد الأسطورة ، الأمل فى معرفة تجريبية ذات أساس وقابلة للاختبار .

يقول «هوكهايمر» : «عندما ندرك أن عصر التنوير والتقدم الفكرى ، يعنى تحرير الإنسان من الخرافة والشر ، والجن والسحر والقدر الأعمى – وباختصار التحرر من الخوف ، فإن هذا الانبهار الذى يدعى اليوم بالعقلانية ، هى أعظم خدمة يمكن أن نقوم بانجازها اليوم» (١). لكن العقل «الأسطورة» أصبح قابلاً للتفكير بنتيجة ردود أفعال كالرومانسية والدين .. وبالتالى رفض الطابع المجرد الشخصى للعقلانية ، فظهرت كينونات مقاومة قدمت الإنسان ككائن (وجدانى وعاطفى «روسو» ١٧١٢ – ١٧٧٨» – وكذات (لا يمكن إرجاعها إلى أى شكل من أشكال العقلنة) كيركيجارد (١٨١٣ – ١٨٥٥) أو الكون أشياء أخرى غير القوانين الميكانيكية ، (فالحياة عاقلة أو عقلية) شوبنهاور ١٧٨٨ ، ١٨٦٠ نتشه ١٨٤٤ ، ١٩٠٠ . فالعقلانية ذات الطابع المجرد ، والتى رفضها «أدورنو» لم تنجح فى سد الفراغ الذى تركته تنحية الميت والمقدس، فالعالم المعقلن ، والمنزوع من معناه ، يقود حسب (فيبر ١٨٦٤ ، ١٩٢٠) إلى تعدد القيم ، وإلى العدمية،

---

* تحديد العقل كموقف يعكس معظم طروحات مدرسة فرانفكورت النقدية كتجاوز للتحديدات السابقة خاصة مفهوم العقل الكلى او الكليانى ، وحتى مفهوم العقلانية التى قدمت ذاتها كايديولوجية للتحرر والتقدم

(١) علاء طاهر : «مدرسة فرانكفورت» (من هوركهايمر إلى هابرماس) منشورات مركز الانماء القومي ، بيروت ، ط ١ ، (ب. ت) ص ٦٦

التى وضحها «نيتشه» بشكل جيد . فامتداد «العقلانية الأدواتية» * تنتهى فيما يظهر إلى عقلانية جديدة ، وغياب المعنى كقسمة من عالم يتحلل من الإلهى ، يقول إلى فضح العقل ببساطة . وبعدما أصبحت العقلانية مكبلة بسيطرة الدولة والنزعة المؤسساتية .. أصبح الانزلاق إلى «اللاعقلانية» ، هو الوضع التحررى الأول بفضل خروجه من عقلانية مصطنعة ومجهضة أصلا ، وبالتالى غدت الفلسفات اللاعقلانية ذات دور وظيفى وما هو عقلانى مقترنا بمدى انغلاقه عن «عقلانية الواقع» ، فمن هذا المنظور نجد «نيتشه» لا يقبل أي نوع من القوانين التى نعترف بها ، ولا يرفض تلك التى شرعها الإنسان فحسب بل يشمل رفضه كل قوانين الطبيعة . أى أن (العقلانية) لم يعد ذلك المفهوم البسيط الذى استمده المفكرون والفلاسفة .. من فلسفة الأنوار والعلوم الوضعية ومن توظيفها فى مختلف مجالات الحياة .

إذ تفجرت مفاهيم العقل العقلانية والمعقول والمعقولية فى مستوى المعرفة وفى مستوى العمل والعلاقات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية ، بحيث أصبحت «مهمة تعيين معايير العقلانية فى المعرفة وفى السلوك من أصعب المهمات وأشدها إلحاحا فى الفكر المعاصر» . على حد تعبير «نصيف نصار» [1] فقد يكون معيار العقلانية العلية الميكانيكية ، أو الاحتمالية أو الجدلية، وقد تكون المنفعة والبرح ،. وقد يكون التماسك الصورى ، أو الفعالية العالية، أو تحقيق العدل أو المحافظة على النظام أو التصرف الهادف المصيب ، أو غير ذلك.

وقد يكون عقلانيا لفلان ما ليس عقلانيا لفلان آخر . والملاحظ بشكل عام هو أن عقلنة الشؤون الانسانية تناول الوسائل أكثر مما تتناول الدوافع والأهداف والغايات .

---

* العقلانية الأدواتية : هى تلك التى تقيم الوسائل أو القواعد التقنية المحصلة بغاية أنجاز هدف محدد .

(١) انظر مقال «نصيف نصار» الشفافية والعقلانية والتحرر الإنسانى «مجلة دراسات عربية» عدد ٣ - السنة ٢٠ يناير ١٩٨٤ ، ص ١٢ .

ومن هنا يتبين أن العلاقات العقلانية بين الإنسان والإنسان تتداخل بشكل عميق وكثيف مع علاقاته اللاعقلانية ، أى علاقاته التى تنبع من عالم اللاعقل ، عالم الأهواء المعارضة والرغبات المتنافرة والمصالح المتناقضة ، كما يتبين بسبب استحالة نفى اللاعقل من عالم الأنسان * ولذا فإن عقلنة العلاقات الاجتماعية، والحياة الأنسانية بصورة عامة ، مهمة مفتوحة ، لا تنتهى ولا تعرف الحلول المثلى المطلقة . إن عالم اللاعقل في الأنسان فى الحياة الفردية وفى الحياة المجتمعية يبدو اليوم بعد اكتشاف التحليل النفسى والعلوم الاجتماعية السلوكية والبنيوية .. أصبح من الصعب اليوم الدفاع عن الوعى والعقل بنفس روح التفاؤل الذي كان فى عصر الأنوار ، لأن الإيمان بقدرة العقل على التفسير والفهم أصبح لا يعنى اليوم الاقتصار علي المعقول فحسب ، بل اللامعقول أيضا يدخل فى دائرة التفسير العقلى .

ولكن هل يمكن مواجهة اللاعقل بشىء آخر غير العقل ؟ . أن العقل الإنسانى يتواكب مع رفض الخوف من تقليص مقدرتنا علي التفكير، فليس المفروض التحكم فى الواقع بل المفروض نقده على أساس أنه واقع قابل للتغيير.

ويبقى فى النهاية الاستنتاج أن النقد الراديكالى للعقل والتعقل الذى يبدو عند «أدورنو وهوركهايمر» ينتمى إلى الشمولية الشكلية اتجاه الايديولوجيا عند «نتيشه» ، أكثر مما ينتمى إلي النظام الايديولوجى عند «ماركس» .

ومما سبق يمكن أن نبين أن «النظرية النقدية» ظلت أفقا واسعا وعاليا فى الواقع ، فإن الأفكار والتفسيرات كانت كثيرة ومتمايزة ، وتملك طابعا غير مكتمل ويحتاج إلى التطوير والتعديل والتكميل .

كما يبدو اليوم للكثيرين أن «النظرية النقدية» قد تم تجاوزها ، لكن مهما بلغ شك الباحثين والدارسين في جدوى رؤى المدرسة ، نظرياتها في المعرفة،

---

* كون هذه العلاقة فصلت بين النشاط العقلى والظروف المادية والأسباب التى تؤدى إليه .

واختلافات أعلامها ، فإن فى بعض كتاباتها وتوجهاتها ما يمكن الإفادة منه، وما المحاولات المستمرة للتجديد والنقد والتصحيح داخل المدرسة ، إلا دليل علي مساعى رجالاتها المستمرة للوصول إلى معرفة أكثر دقة ، كما أنها دليل على ذلك التوتر بين النظرية والواقع .

وما كثرة الاتجاهات المتعارضة داخلها إلا سعى نحو تكوين نظرية شاملة للمجتمع وعنه . إذ كان هدفها كنظرية – عن طريق النقد الراديكالي لظروف وأشكال الاغتراب في المجتمع والواقع – الوصول إلى عالم واع ومتحرر . وإذن الاختلاف المؤسس داخلها كان نتيجة وتعبير عن تعقيدات الواقع . وهنا تكمن مشروعيتها كمدرسة نقدية .

هوامش ومراجع :

* حركة الرومانتيك القرن ١٩ (بالضبط ١٨١٥ مؤتمر فينيا ١٨٤٨) ظهرت حركة الرومانتية كمعارضة لحركة التنوير وكرفض للطابع المجرد الشخصى للعقلانية إذا اصبحت تبحث فيما قبل العقل وفيما بعد العقل .

(١) انظر : «سالم يفوت» فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة . دار الطليعة. بيروت ط . ١ ، ١٩٨٢ ، ص ٦٥ و ٦٦.

(٢) سالم يفوت (المرجع السابق (ص ٨٨.

(٣) انظر مقال ابراهيم الحيدرى : «النظرية النقدية وديالكتيك عصر التنوير» ، دراسات عربية عدد ٩ – ١٠ السنة ٢٥ يوليو / أغسطس ١٩٨٩، ص ١١٠.

(٤) انظر مقال : ابراحيم الحيدرى «الحضارة والمدنية – طروحات فى النظرية الاجماعية والمجتمع ، نشرية رقم ١٠ ، منشورات معهد العلوم الاجماعية، عنابة . الجزائر ١٩٨٣ ، ص ٤١ .

(*) تحديد العقل كموقف يعكس معظم طروحات مدرسة فرانكفورت كتجاوز للتحديدات السابقة خاصة مفهوم العقل الكلى أو الكليانى ، وحتى مفهوم العقلانية التى قدمت ذاتها كإيديولوجية للتحرر والتقدم .

(٥) علاء طاهر : «مدرسة فرانكفورت » (من هوركهايمر إلى هابرماس) منشورات مركز الإنماء القومي . بيروت .ط ١. (ب. ت ص ٦٦) .

(٦) انظر مقال «نصيف نصار» الشفافية والعقلانية والتحرر الإنسانى «مجلة دراسات عربية . عدد ٣ ، السنة ٢٠ يناير ١٩٨٤، ص ١٢

(*) كون هذه العلاقة فصلت بين النشاط العقلى والظروف المادية والأسباب التى تؤدى اليه .